الشاعر رابندرانات طاغور

يجد الناقد مشقة ، عندما يحاول أن يشرك غيره فى تذوق أدب غريب ؛ فالأمزجة الفنية تختلف باختلاف الشخصيات والميول ، ولا تتفق إلا فى نطاق ضيق جدا على عناصر ضئيلة لا اختلاف فيها . ومن هنا كانت الاحتجاجات المرة والتذمر الملح والآراء القاسية التى نصادفها فى بعض ما نقرأ لكتاب الغرب أمثال بلزاك ، وفلوبير ، وأندريه جيد ، وبول فاليرى ، وأوسكار وايلد ، والشاعر الألمانى رلكيه ، إذا أتيح لهم أن يعرضوا لمسألة النقد الأدبى .

وقد ذهب بعض هؤلاء الكتاب إلى القول بأن النقد شئ يؤسف له ينمو على أنقاض آراء عتيقة بالية ، لا صحة لها ولا طائل تحتها ، كشكلة الفكرة والصورة . وكان فلوبير من أشد الساخطين على النقد والنقاد ، وقد هاجمهم بشتى الوسائل منددا تارة بتأثيرهم السيئ فى عقول القراء ، ومترحماً تارة على الأدب الذى ذهب مع الريح لكثرة ما تعرض له النقاد بأساليبهم الفاسدة .

ونحن نفهم هذا كله ونسلم به ، ولكن هناك نوعاً من النقد سمته الأجيال بأسماء مختلفة ، فوصفته مثلا بالنقد الموضوعى ، وبالنقد العرضى ، الذى لا يخرج عن إطار الأثر الأدبى الذى يعالجه ، فيقدمه الناقد للقارئ ليشجعه على مطالعته ، تاركا له الحرية الكاملة فى استحسان ما يقرأ ، أو الاعراض عنه . فالناقد فى هذا الوضع يكون مرشداً لا حاكماً ، ومشيداً لا هادماً . غير أنه من الحمق ألا نعترف للناقد بالحق فى أن يبسط رأيه فى صراحة تامة ، يميز بين الجميل والقبيح ويشير إلى مواضع الضعف والقوة ، ويشرك القارئ فى الفائدة التى جناها من مطالعته ، والعبرة التى خلص بها من تلك الرواية أو ذلك الديوان ، وهو فيما يقدم للقراء يعالج الأثر الفنى من « الداخل » كما يقول الشاعر رلكيه ، ويذهب إلى صميم ما أراد الشاعر أو الكاتب من قصيدته أو قصته ، لا إلى صميم ما يريد أن يجد فى الكتب التى ينقدها من إذعان للمذاهب السائدة ، والقواعد المتبعة .

ونحن نريد أن يكون بحثنا عن رابندرانات طاغور شاعر الهند الخالد ، حديثاً موجزاً بسيطاً عن أغراض الشاعر ، وعما دفعه إلى هذا اللون من الفن ، أو إلى هذا المذهب فى الكتابة والتفكير .

لا بد لنا قبل الوصول إلى صميم شعر طاغور واعتبار خصائص هذا الشعر والرسالة البشرية التى يحملها إلينا ، من أن نعطى القارئ فكرة عابرة عن حياة الشاعر وبعض مؤلفاته . ويرجع الفضل الأكبر فى هذه البيانات إلى المقالات التى نشرها الأستاذ محمود المنجورى على صفحات « المقتطف » سنة ١٩٤٢ ، وإلى بعض ما عثرنا عليه فى المراجع الانجليزية والفرنسية . وقد دهشنا فى بادئ الأمر لنقص هذه العناصر الأولية فى مقدمات أندريه جيد سنة ١٩١٤ ، وبيتس سنة ١٩٤٢ ، « للقربان الشعرى » ، ومقدمات وديع البستانى ، وكامل محمود حبيب ، لديوان طاغور وعنوانه « البستانى » ، والمذكرة التى ذيل بها كاليداس ناج وبيير جان جوف ترجمتهما إلى الفرنسية لديوان « البجعة » ، والبحث الذى صدر به الكاتب الفرنسى رومان رولان ترجمة مادلين رولان لكتاب عنوانه بالبنغالى « كاتورنجا » .

وإذا أمعنا النظر فيما أسميناه نقصاً وجدنا أن الحق بجانب هؤلاء الكتاب جميعاً ؛ فانهم أهملوا ، لا شك فى ذلك ، ناحية ربما كان لها شأن فى تاريخ الأدب الذى نقرؤه فى الكتب والبحوث العلمية التى لا تذكر اسما أو عنواناً حتى تزوده بالتواريخ والمذكرات المختلفة ، ولكنهم فطنوا إلى حقيقة أرفع من التعلق بالتواريخ الدقيقة ، وهى أن شاعراً مثل طاغور لا تحده السنة التى ولد أو مات فيها ، ولا بلاد عاش بها ، لأنه يجاوز زمنه ، ولا يجوز لوطن أن ينفرد به ، فهو شاعراً ومفكراً أكثر منه فيلسوفاً عالمياً ، وهو معاصر لكل فرد يطلب الجمال ويسعى للوصول إليه ، ليستمد من رسالته قوة وأملا .

ومهما يكن من الحاجة إلى التواريخ والبيانات الخاصة بحياة طاغور ، فقد وفقنا لبعضها ، ومنها أن رابندرانات طاغور - وبعض الناس يكتب اسمه بالتاء «تاغور» ، ويقول أندريه جيد إنه يجب أن يلفظ « روبندرونات طوغور » - ولد فى مدينة كلكتا سنة ١٨٦١ ، وكان أبوه فيلسوفاً يعيش متقشفاً ، وتوفيت أمه فى حداثته ، فنشأ طفلا محروماً عطف الأم وحنانها . أرسله أبوه إلى المدرسة ، ولكنه

لم يتردد إليها طويلا ، فاضطر والده إلى أن يحضر له الأساتذة فى البيت . وعهد التلمذة هو من الأمور التى تترك عادة أثراً عميقاً فى نفسية الفرد ، ومن هنا كانت أهمية ما نقرؤه لطاغور إذ يقول : « كنت أتألم مدة طفولتى من شعورى أن نظم التربية فى المدرسة لا صلة لها بالعالم . » وفى سنة ١٨٧٧ رحل طاغور إلى بريطانيا العظمى حيث أتقن اللغة الانجليزية وآدابها ، حتى استطاع فيما بعد أن ينقل بعض مؤلفاته من البنغالية إلى الانجليزية . ثم عاد إلى بلاده وتزوج سنة ١٨٨٣ وبعد عامين ذهب إلى الريف ليشرف بنفسه على ممتلكات والده ، وقد كتب فى الريف أكبر قسط من مؤلفاته ، وبقى هكذا إلى سن الأربعين إذ فجع فى غضون بضعة شهور بوفاة زوجه وابنته الكبرى وأصغر أبنائه . تلقى شاعرنا هذه التجارب القاسية المتلاحقة بصبر وشجاعة و إيمان وهو يقول : « إن عاصفة الموت كانت علىّ نعمة ورحمة » .

وقد أنشأ فى سنة ١٩٠١ فى مدينة بلبور على مقربة من كلكتا مدرسة للاطفال أطلق عليها اسم «شانتى نكتال» أى «دار السلام» . وقد استبدل باسمها فى سنة ١٩٣١ اسم «صفا بهاراتى» ووسع نطاقها فأصبحت معهداً للتقارب والتعارف بين الشعوب .

وقد بدأ من سنة ١٩١٢ سلسلة رحلات ، استأنفها فى سنة ١٩٢١ ثم فى سنة ١٩٢٦ ، فزار انجلترا وفرنسا وألمانيا واليابان وأميركا وروسيا السوفيتية والصين وجنوب إفريقية والعراق وكندا وتركيا و إيطاليا ومصر ، وكان دائماً موضع حفاوة وتقدير و إعجاب .

وفى سنة ١٩١٣ منحه مجمع ستوكهلم جائزة نوبل فى الآداب ، وفى سنة ١٩١٥ أنعم عليه ملك الانجليز بلقب « سير » وفى سنة ١٩١٩ لأسباب سياسية اعتذر طاغور من الاحتفاظ بهذا اللقب ، وفى سنة ١٩٣٠ عهدت إليه جامعة أكسفورد ببعض المحاضرات يلقيها على طلبتها ، وفى سنة ١٩٤١ منحته الدكتوراة الفخرية فى الآداب .

ولما بلغ طاغور الثامنة والستين ، عكف على الرسم ، وقد عرضت آثاره فى لندن ، ثم فى برمنجهام وموسكو و برلين ومونيخ وباريس ونيويورك ، وتوفى فى ٧ أغسطس سنة ١٩٤١ .

ليس من شك أن للآثار الفنية لشاعرنا الفذ شأناً عظيما إذا نظرنا إلى ضخامتها و إلى الموضوعات التى عالجتها .

وإذا استثنينا آلاف الأناشيد التى تركها طاغور كان عدد مؤلفاته الشعرية يبلغ الستين ، وله فى النثر ، قصص وروايات و بحوث ومقالات وعظات وذكريات لا تحصى ، نقل معظمها من البنغالية إلى سائر اللغات ، غير أننا لم نقرأ فى العربية سوى « البيت والعالم » ترجمة طانيوس عبده (مطبعة الهلال سنة ١٩٢٥) ، ومختارات عن « البستانى » مترجمة نظماً ونثراً ، بقلم وديع بستانى (مطبعة المعارف) ؛ وترجمة للديوان نفسه من محمد كامل محمود حبيب (مطبعة المقتطف سنة ١٩٤٠) . ومن أهم ما قرأنا له شعر مترجم إلى الفرنسية ، نخص بالذكر « القربان الشعرى » و « قطف الثمار » و « البستانى » و « الهلال » و « البجعة » .

إن الشئ الرائع الذى نجده فى شعر طاغور هو محاولته تصوير الانسان أمام ربه ، والفرق الشاسع بين الخالق والمخلوق من جهة ، والتقارب الغريب وعدم الكلفة بينهما من جهة أخرى . ولتلك الفكرة أهميتها الكبرى فى فلسفة الهند .

يذكر طاغور الانسان فى شعره ، فيشبهه بكأس ذقيقة قابلة للكسر السريع ، وبناى صغير من القصب فى يد الخالق . ولكن الشاعر يرى أن هذه الكأس وذلك الناى ، يكبر شأنهما إذا أراد الله أن يملأهما حياة متجددة ، وموسيقى أبدية ، فى ذلك الحين يتسع قلب الانسان ويبتهج ، ويكاد يذوب فرحاً ، وتصبح يداه قادرتين على أن تتلقيا أكثر مما أتحفهما به الخالق .

و يرى طاغور أن السبب الذى يصل الانسان بربه ، هو قدرة الانسان على الفناء ، فما الحياة وما بها من شدة ورخاء أو حزن وفرح ، إلا هذا النشيد الذى يصعد من الطبيعة ومن الكائنات ومن الجمال ، والطرب الذى يختلج له قلب المغنى فينسيه نفسه ومقامه الحقيقى ، فيدرك حينئذ أن صداقة تربطه بربه . والشعر الذى ينشده ويقربه شيئاً ما إلى الموسيقى الفياضة التى تتدفق من السماء ، وتشيع النور فى العالم .

ويدور عدد وافر من قصائد طاغور ، حول أفكار محدودة ، حتى ليصيب القارئ شئ من الملل ، إن لم يترك وقتاً كافياً بين قراءة وأخرى . وقد يندر أن تقرأ صفحة من « القربان الشعرى » مثلا ، دون أن تصادفك عبارة من الموسيقى ، أو إشارة إليها . فالشاعر يحس تارة بسرور ، لأنه تمكن أن يجرد غناءه من كل

ما يثقله من زينة أو بلاغة أو إطناب . وهو يعترف تارة أخرى ، فى حسرة ويأس ، أنه حاول عبثاً الاهتداء إلى اللحن الموسيقى الذى يقصده ، فنجده ساخطاً على صوته السجين ، البعيد كل البعد عن الكلمات التى يدعوها فلا تجيب ، وينتظرها فتخيب أمله .

و إذا تركنا الموسيقى وما إليها من تشبيهات واستعارات ورموز شعرية فى مؤلفات طاغور ، وبحثنا عن ألوان أخرى من التفكير ، وجدنا الشاعر عاكفاً على تحليل شخصيته وما تشمله من أمزجة وميول ، وانفعالات وطموح إلى الجمال وافتقار إلى الخير ، وسخط و إشراق ، وعبوس وأمل ، وهو فى كل لحظة ، وعند كل محط لفكرة ، يتوجه إلى الخالق ليسمع له وليساعده على تحقيق مساعيه ؛ وليرشده إلى الجمال والكمال فى الشعر وفى الحياة .

وفى موضع آخر من شعره يعلن الشاعر أن حاجته ماسة إلى عفة الجسم ، وطيبة القلب ، وازدهار الحب والأعمال ، وأن هناك ساعات عصيبة تمر به ، من حين إلى آخر ، فيشقى لها ويشكو منها ، فتزيد رغبته فى الراحة التامة ، وفى أن ينعم نظره فى محاسن الطبيعة وجمالها .

والطبيعة كما يبدو للقارئ من أول وهلة ، تزهو وتفوح فى قصائد طاغور ، وصفحة الطبيعة كما يقول : « إنما هى لوحة متجددة الجمال ، يرقبها الشاعر بمنظار إلهامه ، ثم يفصح عنها بترنيم وتلحين وموسيقى ، دون استعمال أصباغ وألوان » . وللقارئ أن يطوّف بشعر طاغور ما طاب له التطويف ، فانه سيخرج من هذه الجولة وقد امتلأ بصره بألوان الزهر وازدحمت ذاكرته بأسماء السوسن واللوتس والصندل والزعفران وحقول الخردل وغابات المانجو ، ويصور القمر وهو يغازل الزنبق والاقحوان تارة ، ويحبو متكاسلا فى دلال بين الشجر تارة أخرى ، والسحب التى تنعقد فى السماء ، أو تتكاثف مثقلة بالمطر فوق هامات الشجر ، أو تسحب ذيولها على الكواكب ، و برقة النسيم يعبث بأفنان شجرة الخيزران .

وقد أثرت فى نفس الشاعر وحواسه فصول السنة ، بل شهورها ، وحركات الضوء والظل والريح والماء . وهو يدين للطبيعة بتشبيهات رائعة ، مما نجدها فى أحسن الشعر الفرنسى الرومانتيكى . ولا يسعنا إلا أن نذكر بعضها : « إنما يداك زهرتان ناضرتان من زهرات اللوتس » و « دعج عينيك أشد حلوكة من سواد

السحابة المثقلة بالمطر » و « ستشع خواطرك من عينيك السوداوين كما يطل طائر من عشه » و « إنك تختفين كأنك نجم توارى خلف التلال » و « أنت سحابة السماء التى تسبح فى سماء أحلامى » الخ . . .

والطبيعة تحدث الشاعر وتناجيه ، وتصرفه عن الأمور الخارجة ، والمصالح المادية . فيفطن لأهمية ما يقع عليه نظره ، و يهيئ نفسه لتلقى درسها ، والانتفاع به ، وربما دفعه إعجابه بالكائنات الطبيعية ، التى لم تعبث بها بعد يد الانسان ، إلى شئ من الغلو والتطرف ، فيهجر العالم ومن فيه ، ويصبو إلى حياة هادئة بريئة ، لينصت إلى همس دفين فى قلبه ، عندما تغيب الشمس ويشعر الانسان بجمال الطبيعة ، وجلال الحياة .

وهنا تبدو للشاعر عناصر من الفكر ، لم يكن له بها من قبل ذلك عهد ، وتتجلى له معان للحياة تزيد من معرفته وطاقته على إدراك أسرار الكون والمخلوقات ، وتساعده على التأمل فى الأسباب الوثيقة التى تصله بالطبيعة وبالانسانية ، وتجعل منه حلقة ضرورية من حلقات البشر ، وعاملا أساسيًّا لانسجام العالم . ومن هنا كانت الناحية البشرية ، فى شعر طاغور . وهو يثق كل الثقة أن الأفكار التى تجول بنفسه ، والألفاظ التى يرددها لسانه ، والموسيقى التى تجمع بين الكلمات وتكسبها بهجة وتزيد من تأثيرها فى العقول ، كل هذا وليد السكينة ، وغاية كل تأمل أو تفكير صادق .

ولكن الشاعر لا يعيش لربه ولنفسه فحسب ، فهناك قوم يترقبون حركة شفتيه ليتلقوا رسالته ، ويستقوا منها ما يرد عنهم شبح اليأس والقنوط ، ويعاونهم على الاقدام والصبر والشجاعة . ولا يجد طاغور فى بعض الأحيان ، متسعاً من الوقت ، ليتأمل فى الحياة ، وليقف فى خلوة عند الأفكار التى تجول بخاطره ؛ لأن هناك أصواتاً ترتفع فى الليل وقلوباً شابة ، ونظرات كلها حب ، تنطلق وتطلب الموسيقى ، فيسأل الشاعر : « من ذا يستطيع أن ينسج أغانيها إن انزويت أنا على شاطئ الحياة ؟ لا أستشعر فى نفسى سوى الموت والحياة الأخرى » . ونحن نلمس هنا ناحية للنضال والخصومة بين مظهرين من مظاهر الحياة ، نرى الشاعر الذى يسعد بقدرته على التفكير فى أمور تهمه من جهة ، ومن جهة أخرى نرى الشاعر الذى لا بد له أن يشغل نفسه بالذين يفدون و يروحون أمامه وهو « لا يستطيع لهم دفعاً » .

هذا وليس فى نيتى ، ولا فى استطاعتى ، أن ألم بأطراف المعانى المختلفة المبثوثة فى دواوين طاغور التى حصلت عليها مترجمة إلى العربية والفرنسية والانجليزية . وما الآراء التى بسطتها ، إلا الجزء الضئيل مما ينبغى أن يقال فى شاعر ، لم يترك فكرة إلا وذكرها وشعوراً إلا وعبر عنه ، فى أسلوب أخاذ موسيقى .

ومن المسائل التى اهتم بها طاغور ، والتى ربما أتيح لنا أن نعرضها فى مقال آخر ، مشكلات الحب والحرية والموت .

ونريد أن نشير ، فى نهاية هذا البحث الوجيز ، إلى حقيقة لا ريب فيها ، وهى أن طاغور نال هذا الكمال فى آثاره الفنية ، لأنه سما بالفن إلى مرتبة العقيدة ، وله مؤلف قائم بذاته عنوانه « دين الشاعر » . وقد لمسنا فى بعض فصوله سر جمال شعر طاغور . وما ينتظره من هذا الدين ، هو أن « يساعد الضمير على التخلص من نير المادية » ، وأن يذكر الشاعر ومن يتلقى رسالته ، فى ساعات الجهد والاضطراب ، بأن هناك « ترنيم البلبل » وجمال الزهر . ويقول طاغور : « ليس هذا الدين جواباً على سؤال بل هو موسيقى تسلينا عن أفكارنا كلما امتلأت بها نفوسنا » .

وجاء شعر طاغور دليلا قاطعاً ، و برهاناً صادقاً ، على ما يقوله فى كتابه ، ورسالةً فكرية وخلقية من أعظم ما جاد به الشعراء على الانسانية .

بحوله فرنسيس